

مراعاة الفروق الفردية للتعلم من خلال مادة التربية الإسلامية

**considering the individual differences of learning through
Islamic education.**

عدنان مهنديس*

وزارة التربية الوطنية، المملكة المغربية mhndysdnan@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/12/31	تاريخ القبول: 2025/11/02	تاريخ الارسال: 2025/09/09
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الكلمات المفتاحية: الفوارق، الاستعداد، التعلم،
التربية، الإسلامية.

ملخص:

Abstract:

This research addresses the extent to which the principle of individual differences between learners is present in the formulation and programming of learner' learning in Islamic education. The article also discusses in general the position of these differences in the learning process, as well as shedding the light on the relationship or the distinction between the individual differences and readiness. It also explores the responsibility of managing this relationship through the teacher and

يعالج هذا البحث مدى حضور قاعدة مراعاة الفوارق الفردية بين المتعلمين في صياغة وبرمجة التعلم لدى المتعلمين في التربية الإسلامية، حيث تم التطرق لموقع هذه الفروق في التعلم على وجه العموم، ثم بيان العلاقة او الفرق بينها وبين الاستعداد، ثم مسؤولية تصنيف هذه العلاقة من خلال المدرس وكذا الكتاب المدرسي، لينتقل البحث بعد ذلك إلى تأصيل الفوارق الفردية واعتبارها من خلال القرآن الكريم وسنة المصطفى ﷺ وكذا نماذج من علماء التربية عند المسلمين، ولا شك أن اعتبار هذه القاعدة دليل واضح ومؤشر قوي على ما لها من أثر بالغ في تقوية التعلم من خلال هذه مادة التربية الإسلامية.

* المؤلف المرسل

إشكالية البحث:

يحاول هذا المقال بسط جزئية محددة في هذا الصدد من خلال النظرية التربوية الإسلامية وهي قاعدة مراعاة الفوارق الفردية في التعلم وهي قاعدة تنتمي إلى مجال البيداغوجيا أو الحقل التربوي، انطلاقاً من الإشكالية الآتية: هل يمكن الحديث عن الفروق الفردية في التعلم ضمن التربية الإسلامية؟

وهي إشكالية كبرى يمكن أن نجزئها من خلال الأسئلة البحثية الآتية:

• ما معالم مراعاة الفوارق الفردية في التعلم من خلال الرؤية التربوية الإسلامية؟

• وما نظرة المنظرين المسلمين لمجال التربية في تحديد معالمها؟

• كيف تم تصريف هذه الفوارق في التعليمات ضمن المنهاج التعليمي في التربية الإسلامية ومتعلقاته؟

• وما وجه التمييز بين الفوارق الفردية والاستعدادات في التعلم؟

منهج البحث:

ولمقاربة هذه الإشكالية اخترت تبني المنهج الوصفي من خلال البحث عن مصادر المعلومة المرتبطة بهذه القضية من مظاهرها فيما يرتبط بمن عالج هذه القضية من المهتمين بهذا الشأن، وفي أجرأته أسوق النصوص والاستشهادات المرتبطة بالإشكالية موضوع الدراسة مع إخضاعها للتعليق والتحليل والمناقشة.

the textbook. The research then proceeds to root individual differences and consider them through the holy Quran and the Sunnah of Mouhamed (peace be upon him), as well as some models of Islamic educational scholars. There is no doubt that the consideration of this principle is a clear evidence and a strong indication of its significant impact on strengthening learning through Islamic education as a school subject .

Keywords: differences, readiness, learning, education, Islamic education.

مقدمة:

لقد كان الفكر التربوي الإسلامي سباقاً لتقعيد وضبط مجموعة من القواعد والمبادئ والتقنيات التي لها أثرها البارز في تطوير وتجويد العملية التعليمية والرفع من مردوديتها سواء داخل حقل التربية الإسلامية أو خارجها، على خلاف من يظن أن الغرب هو الذي انفرد بذلك واختص به وحاز قدم السبق فيه تنظيراً وتطبيقاً، ولا أدل على ذلك من الشواهد التاريخية التي لا زالت الكتب والوثائق شاهدة عليها، ومن ذلك ما خلفه التراث العلمي لمجموعة علماء وفقهاء الأمة من قضايا هامة في مجال التربية والتعليم، سواء تلك المخصصة بالذكر والتصنيف أو تلك المبتوتة داخل علوم ومجالات شرعية أخرى، وهي مادة خامة للاشتغال قصد البيان والإبراز.

خطة البحث:

الدراسية على وجه العموم، مع اختلاف الجهود والرؤى المبذولة في الأخذ بعين الاعتبار هذه الفوارق في التعلم بدليل توظيف مصطلح ((المقاربة))، مع أن المعيار كما سبق في كلام الدكتور البورقادي هو احترام الإطار العام للمنهج في مفرداته وحيزه الزمني.

ويمكن القول إن هذه البيداغوجيا لها سمة إبداعية وتجديدية، إذ لا تجعل التعلم قاصراً على نمط واحد أو شاكلة محددة معروفة، وهو ما يثير سؤال تنوع طرق التدريس ووسائل وموارد التعليم والجدوى من ذلك في ضوء بلورة بيداغوجيا الفوارق الفردية، وفي هذا يقول سعيد حليم: " إن تنوع طرق التدريس سبب رئيس في تنوع الوضعيات والوسائل وهذا يدفع بدوره إلى تنشيط دور المتعلم الذي سينتقل من دور (المستهلك) إلى دور (المشارك) الذي يشارك في بناء الدرس من خلال وضعيات مختلفة ومتنوعة. وهذا يفرض على الأستاذ أن يجتهد في الاطلاع على مختلف طرق التدريس، ومحاولة تجريبها تدريجياً، واتباع ذلك بالتقويم اللازم؛ سواء في إطار التقويم الذاتي، أو في إطار التقويم التبادلي الذي يقوم على الاستفادة المتبادلة بين أساتذة المادة الواحدة، أو مختلف أساتذة المواد المختلفة"².

كما أن مراعاة الفروق الفردية في التعلم والتعليم تفتح الآفاق حتى في فرص الحياة من أجل إيجاد الوضع المناسب فيها للاندماج بمختلف أنواعه، سواء كان اندماجاً اجتماعياً، أو اندماجاً اقتصادياً، أو غير ذلك.

فلو أغفلنا هذه الفروق لما استطعنا حفز الناس على العمل والإنتاج، أو حل مشاكلهم أو توجيههم في المهنة والأعمال ونوع التربية والتعليم الذي يناسبهم، أي لصعب علينا وضع الشخص المناسب في المكان

وقد جاء هذا المقال مكوناً من مبحثين؛ مبحث يعالج تمييز الفروق الفردية وموقعها في التعلم ومبحث يهتم بإبراز مكانة هذه الفروق في التعلم ضمن دائرة العلوم الشرعية أو مجالات التربية الإسلامية، ليختتم البحث بذكر أهم النتائج التي عنت لي.

1. تمييز الفروق الفردية وموقعها في التعلم:

1.1 تعريف البيداغوجيا الفارقية:

البيداغوجيا الفارقية أو بيداغوجيا الفوارق الفردية هي استراتيجية للتعليم والتعلم تأخذ بين الاعتبار وجود فوارق فردية في طبيعة وإيقاع التعلم عند الأفراد، وبالتالي تعمل على تكيف هذه التعلّمات حسب هؤلاء الأفراد من أجل تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص بينهم وتقديم طرق متنوعة ومختلفة لبناء واكتساب التعلم الواحد.

يقول في تجلية ماهية هذه البيداغوجيا الدكتور خالد البورقادي وهو أحد المشتغلين على قضايا التربية والتكوين من داخل مجالات العلوم الشرعية: "إن إعمال مبادئ البيداغوجيا الفارقية في التدريس هو اعتراف بمركزية المتعلم، وأهميتها في نجاح أي نظام تعليمي، فهي مقارنة بيداغوجية تعترف بوجود فوارق فردية بين المتعلمين، وتكيف عملية التعليم والتعلم حسب خصوصيات كل واحد منهم بما لا يخل بتنفيذ مفردات المنهج في الغلاف الزمني المخصص لذلك"¹.

والغاية التي تؤطر الاشتغال عن طريق هذه البيداغوجيا، بل تتوحد وتشترك وفقها مجموعة من البيداغوجيات هي غاية تحقيق الأهداف التعليمية المتوخاة من مادة التربية الإسلامية خاصة وباقي المواد

على المخرجات التي تشكل حصيلة هذا الامتزاز التركيبي، بل إننا نجد داخل كل نوع من هذه الفوارق فوارق خاصة في درجة التعلم، فداخل مركب الفوارق الذهنية على سبيل التمثيل نجد من له قوة كبيرة في الاكتساب ونجد من هو متوسط في ذلك ومن هو بطيء، وفي كل خير على وجه العموم.

3.1 العلاقة بين الفروق الفردية والاستعدادات:

يرد مصطلح المراعاة ومعها التكيف أيضا في سياق الحديث عن الفروق ويأتي عطفًا عنه الاستعدادات، فينقح في الذهن أهما متساويان وشيء واحد، إلا أنه عند التأمل والتحقيق يظهر أنه لا يمكن التسوية بينهما، وذلك نظرا لأن اختلاف المبنى يدل على اختلاف المعنى، ومحاولة كشف العلاقة أو الفرق بين الفروق والاستعدادات يمكن أن نستأنس ببعض النصوص المجلية لهذا الغرض، من ذلك ما ورد عن المنظرين المسلمين الأوائل في ميدان التربية، حيث يقول على سبيل التمثيل العلامة ابن خلدون (808هـ) في تجلية علاقة الاستعداد بالتعلم: "اعلم أن تلقين العلوم للمتعلّمين إنما يكون مفيدا إذا كان على التدرّج شيئا فشيئا وقليلًا قليلًا يلقي عليه أولًا مسائل من كلّ باب من الفنّ هي أصول ذلك الباب، ويقرب له في شرحها على سبيل الإجمال ويراعى في ذلك قوّة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتّى ينتهي إلى آخر الفنّ وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم"⁵.

يظهر من خلال هذا النص أن ابن خلدون يربط ممارسة عملية التعلم بوجود الاستعداد عند الفرد، وما دام الأفراد مختلفين في مقدار استعدادهم لهذا التعلم؛ فإننا سنجد فروقا في حجم وكمّ تعلّم هؤلاء الأفراد،

المناسب له، مما يؤثر تأثيرا سلبيا على الاقتصاد القومي والتنظيم الاجتماعي في أي مجتمع كان³.

2.1 مركبات الفروق الفردية في الشخصية التعليمية:

إذا أردنا أن نكشف حقيقة الفروق الفردية التي تنجلي من خلال ظاهرة التعليم والتعلم فإننا نجد أن بيداغوجيا الفوارق تتميز بالتباينات بين المتعلمين من حيث:

- الفوارق الذهنية: أي المتصلة بدرجة اكتساب المعارف المفروضة من قبل المؤسسة وفي ثراء سيرورتهم الذهنية.

- الفوارق السوسيو-ثقافية: وتتمثل في القيم والمعتقدات وثقافة الأسر واللغة والرموز والتنشئة الاجتماعية والمكانة.

- الفوارق السيكولوجية: إن الواقع المعاش له الأثر الكبير في شخصيتهم وحافزيتهم وإرادتهم واهتمامهم، وإبداعهم وفضولهم وطاقتهم ورغبتهم وتوازهم⁴.

وهي فوارق تبين معايير المقارنة التربوية بين المتعلمين من حيث زوايا التأثير والتأثر في إحداث التعلم لدى كل فرد من مجموعهم، فالشخص تركيبة نسقية تفاعلية، يمتزج فيها المركب المعرفي بالمركب النفسي بالإضافة إلى امتزاج المركب الاجتماعي فيها مع المركبين الآخرين، وبالتالي؛ فقد تختلف أوزان وكميات حضور هذه المركبات في تفاعل بعضها مع البعض، ومنه؛ تحصل غلبة أحدها على الباقي، مما ينتج عنه تأثير وتأثر (علاقة جدلية) في كيفية وإيقاع التعلم مما يؤثر

التعلم⁸، ولا شك أن هذا موقف إيجابي إحيائي يبعث على التفاؤل، ويعطي إمكانية التطوير وعدم الاستسلام لما هو كائن من محدودية لإمكانات التعلم والتمهير، إذ لو فُرضَ هذا الأمر لانصرف كثير من الناس عن فرص التعلم، ولما عاد هناك مجال للحديث عن الفروق واحترامها في باب التعليم.

إلا أنه من الصعب أن نسلم بالنتيجة السابقة بشكل مطلق، إذ نجد من الباحثين في هذا الصدد من يربط الاستعداد في طريقة التعلم على وجه اختلاف الكيف وتفاوته حسب القدرات الفردية في التعلم، يقول ماجد عرسان الكيلاني: "أشارت آيات القرآن الكريم ونصوص السنة الشريفة إلى تفاوت الاستعدادات عند المتعلمين، ووجهت المرين إلى مراعات هذه الاستعدادات وإعداد الفرد لما يلائم استعداداته دون إرهاق وتعجز، وأن يعطى الفرصة ليتعلم بالتجربة والخطأ إن أخطأ التفكير أو التطبيق... وقد أشارت الأحاديث إلى أن البعض يقتصر على الحفظ وبعضهم يتعداه إلى الوعي، ورضيت من الحافظ أو حامل الفقه أن ينقله إلى من هو أفقه منه"⁹.

فاختلاف قدرة التعلم عند الأفراد يتجلى في النص السابق من خلال وجود صنف يتوقف استعداده عند الحفظ، ووجود صنف ثانٍ تصل قدرته إلى عمق وعيه وإدراكه لما حفظ، ولا شك أن هذه الدرجة الثانية قدر متقدم في الاستعداد المعرفي، رغم أن هذا الاختلاف لا يعني تفاوتاً في الكم والمقدار العددي، لأن المهارة المستخدمة اختلفت من صنف إلى صنف آخر، والفرق في اختلاف التوظيف والإعمال، ومع ذلك تم التعبير عن هذا الفرق بالاستعداد ومراعاته في تعلم الأفراد.

والحديث هنا مقصور عن الكم والمقدار، لأن ابن خلدون ذكره في سياق التدرج والارتقاء من القليل نحو الكثير كما هو ظاهر، أما قضية الكيف واختلاف الأفراد في استراتيجيات تعلمهم ومناهج اكتسابهم فهذا أمر آخر ليس مقصوداً هنا في هذا المقام، وعليه؛ فيمكن أن نقول إن مصطلح الاستعداد يحيل على الفروق الفردية على المستوى الكمي في التعلم.

وعليه؛ يمكن القول إن الاستعداد في ربطه بالمستوى الكمي يحيل على الإمكانيات الفردية النابعة من صفاتهم الداخلية المرتبطة بالرغبة والدافعية والحافزية، فكأنه نتاج أو ترجمة لهذه الصفات، مما يجعل الاستعداد مركباً تتدخل فيه عوامل عقلية ومهارية ونفسية كذلك، ولذلك ورد في تعريفه على لسان الدكتور العربي شاووش⁶ ما نصه: "الاستعداد l'aptitude يعني مجموعة من الصفات الداخلية التي تجعل الفرد قابلاً للاستجابة بطريقة معينة وقصدية، أي أنه مؤهل لأداء معين بناء على مكتسبات سابقة ومنها القدرة على الإنجاز والمهارة في الأداء، ولذلك يعتبر الاستعداد دافعا للإنجاز لأنه الوجه الخفي له. وتضاف إلى الشروط المعرفية والمهارية شروط أخرى سيكولوجية فالميل والرغبة أساسان لحدوث الاستعداد"⁷.

وفي استثمار لموقف ابن خلدون حول نشأة الاستعداد وتعبيره عن قابليته للزيادة والنقصان يقول الأستاذ سعيد حليم عن هذا الأمر: "الاستعداد للتعلم أمر مكتسب؛ يرتبط أساساً بمراعاة قدرات المتعلم. إذ كلما زُوِعت قدراته وارتقى في التعلم تدريجياً، كلما نما فيه الاستعداد للتحصيل أكثر فأكثر. وكلما وجد المتعلم أبواب التعلم موصدة في وجهه من خلال عدم مراعاة قدراته، أدى ذلك إلى أن ينصرف ويعرض عن

وترددا بما ينبغي أن يفسح من مجالات متنوعة لمختلف التعلّمات هو الكتاب المدرسي باعتباره الأداة الأولى والمباشرة لتصريف المنهاج التربوي الخاص بمادة أو مجموع مواد معينة، فهو الوعاء الذي يحوي النصوص والصور والخطاطات والخرائط والألوان المختلفة والجدول التوضيحية والأنشطة التعليمية المختلفة والوضعيات المثيرة، وفي هذا يقول العربي شاووش: "فالكتاب المدرسي إذن عليه أن يراعي الفلسفة العامة للبلد والمقرر والكفايات المرتبطة بمجالات التعلم ومسيرة التطور العلمي والتربوي، وأن يعمل على نمو شخصية التلميذ الوجدانية والمعرفية والحس حركية، وأن يعمل على انفتاح التلميذ على محيطه والعالم من حوله في احترام للدين الإسلامي وحقوق الإنسان ومبادئ المساواة ونبذ العنف والسلم والعدالة. وأن يشجع الكتاب المدرسي التلميذ على التعلم الذاتي وأن يراعي عند وصفه عنصر التماسك بين المواد المختلفة، وأن يشجع التلميذ على مختلف الأنشطة التعليمية والتمارين التطبيقية مع مراعاة الفروق الفردية"¹²، وفي نظري أن من أهم المعايير التي ينبغي أخذها بعين الاعتبار في عملية تقييم الكتب المدرسية - سواء في التربية الإسلامية أو غيرها من المواد الدراسية - معيار الملاءمة للفوارق الفردية في التعلم مع وضع معطيات دقيقة قابلة للقياس والملاحظة في عملية التقويم هاته، فيمكن على سبيل الاقتراح وضع أسئلة فارقية من قبيل:

- هل الصور الموظفة معبرة وجذابة في إثارة التعلم عن طريق المجال البصري؟
- إلى أي حدّ تتيح إضافة نوعية لمنسوب التعلم أم هي مجرد صور استهلاكية؟

وعليه؛ فمن الصعب جدا حسم وجه التفريق بين هذين التوظيفين في الاصطلاح التعليمي، وقد يحتاج الأمر بحثا مستقلا يروم معالجة إشكالية التفريق بينهما.

4.1 موقع البيداغوجيا الفارقية في التعلم:

إن النظر إلى الفوارق الفردية لدى المتعلمين أو لدى الفئة المستهدفة بالتدريس أمر يعتبر من لوازم التفكير عند المدرس إذا أراد أن ينجح في أداء رسالته التربوية، وهو ما يتنافى مع الإلقاء المباشر أو إعطاء درس بشكل عمودي يجسد سلبية المتعلم كمتلق لا تستحضر تمثلاته ولا يحترم حضوره في الحوار الفعال الإيجابي المثمر نحو البناء التعليمي الذي يبني فيها اللاحق على السابق، وهو ما يبرر الأخذ بعين الاعتبار الجوانب الثلاث في شخصية المتعلم، يقول أحمد العمراوي وخالد البقالي: "ولذلك بات على مدرس التربية الإسلامية أن ينظر إلى قسمه من زاوية الفوارق الفردية، والاهتمام بتنمية سائر القدرات التي يتوفر عليها التلاميذ والعمل على إثارتها، وبات عليه كذلك أن يتعد عن إعطاء الدرس الجاهز الذي ينسأه التلميذ بسرعة، ويستعيض عنه ببناء الدرس، لأن المعرفة التي يساهم التلميذ في بنائها تظل راسخة في ذهنه لمدة أطول، وتساهم بالتالي في استثمار جميع إمكاناته العقلية، وطاقاته النفسية، وقدراته الحركية"¹⁰.

وليس مراعاة الفوارق الفردية في التعلّمات أمرا مقصورا في الاعتبار على الأستاذ أو المدرس فقط، بل إن الأمر يتعدى في ذلك إلى الموارد (الوسائل)¹¹ الديدانكتيكية والنظر في اختيارها وتكييفها بمنهج فارقي يتيح انخراط الجميع، وأهم هذه الموارد وأكثرها إتاحة

القاعدة، لأن الأصول التي اشتغلوا عليه مليئة بمناطات اعتبارها والحث عليها في التعلم.

إن تلك المبادئ التي لا يستغنى عنها اليوم في العملية التعليمية التعليمية لم يكن ابتداعها مرتبطاً بعلماء التربية بعامة وعلماء النفس بخاصة فحسب، بل إن علماء المسلمين أسهموا - من خلال تجاربهم الشخصية في مجال التعليم - في الإشارة إليها، وبيان أهميتها وضرورة توظيفها تربوياً، وطبقوها في تعليمهم، وطلبوا إلى المتعلم معرفتها وتطبيقها عند تعلمه¹⁴.

1.2 الفروق في التعلم من خلال القرآن الكريم:

يمكن أن نستأنس في هذا المقام بآيتين كريمتين، وهما:

- يقول جل ذكره: ((وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)) (سورة النحل: الآية 78).

حيث أشار عز وجل إلى مصادر التلقي والتعلم، والناس مختلفون في توظيفها أثناء التعلم، فمنهم من يكون قويا في التقاطه المعلومة بالسمع وتوظيف هذه الحاسة، خاصة عند الكفيف تجد هذه الحاسة قوية عنده في الاكتساب، ومنهم من تجد حاسة الإبصار عنده قوية فتجده بارعا في التقاط الصور وحسن استثمارها في التعلم، مع أن تقديم السمع في هذه الآية ليس تقدما من عبث، بل هو تقديم قاصد، وذلك لأن تعليم الصبي الصغير يركز أساسا على ما يلتقطه في مهده من أصوات وكلمات مفردة أو مركبة، وهي الحمولة أو اللبنة الأولى التي تشكل منسوب تمثلاته

• ما مدى ملاءمة حجم تقسيم النصوص والأجزاء القرآنية لمستوى تركيز واستيعاب الفئة المستهدفة؟

• ما نوعية النصوص ومجال انتمائها؟ وإلى أي حد تتيح فرصة التعلم للأفراد المخاطبين بها؟

• ما نوع التلاميذ الذين يجدون بغيتهم وضالهم في النصوص والوضعيات الموظفة في هذا الكتاب المدرسي أو ذاك؟

2. مراعاة الفروق الفردية في المنهج الإسلامي:

يقول الأستاذ عاطف السيد: "ويهددي المنهج الإسلامي بكل ما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف في تربية وتكوين الإنسان المؤمن، وهو يقوم على فلسفة واقعية متكاملة ومتوازنة وشاملة لكل جوانب الحياة، تدعو إلى المشاركة بالرأي وجدال الآخرين بالحكمة والموعظة الحسنة، وتعمل على تنمية طاقات وقدرات الإنسان مع مراعاة استعداد وقابلية وميول الفرد المتعلم"¹³.

فمراعاة هذه الفوارق الفردية في التعليم والتعلم هي نابعة من عمق خصائص الشريعة الإسلامية، والتي من ضمنها الشمول والتوازن، فلولا هاتين الخاصيتين لتعلم البعض دون البعض، ولوجد بغيته في الشريعة أناس دون آخرين، مما سيجعل مكنم القصور والتحفظ حاصلًا في هذه الشريعة، وهو ما لا يوجد شرعا وعقلا.

ولهذا وجدنا في استنباطات العلماء المسلمين المشتغلين على قضايا التربية والتعليم إيرادهم لهذه

يَتَجَادِبُهُ دَلِيلَانِ فَيُصَارُ إِلَى التَّرْجِيحِ، وَالْمُرْجَحَاتُ لَا تَنْخَصِرُ، وَقَدْ لَا تَبْدُو لِلْمُجْتَهِدِ¹⁶.

2.2 مراعاة الفوارق في السنة النبوية:

ولنا في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة حينما يكتشف القدرات ويعتني بالموهوبين ويحثهم على الإبداع في وجوه الخير النافعة وفي ذلك استثمار لملكاتهم وعلى المرابي إضافة إلى ثنائه عليهم أن يقدم الجوائز النافعة¹⁷، وذلك من أجل تثمين هذه التميزات وهذه الفروقات الإيجابية في التعلم حتى يتعزز ويتقوى استثمارها.

ومما يمكن أن نستأنس به في هذا المقام الاستشهاد بحديث الغيث فيما روي عن أبي موسى، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّاءَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَفَقَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِمَّا هِيَ قَيْعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللهِ، وَفَقَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَزِفْعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»¹⁸.

يبين هذا الحديث النبوي الشريف وجود فوارق في الملكات والاستعدادات الفطرية التي تترجم قابلية التعلم وحجمه ونوعه، والناس في ذلك متفاوتون على أشكال وطاقت مختلفة، إلا أنه يشير إلى وجود نوع خاص منفرد بذاته لا استعداد له ولا قابلية، فكأنه خارج في التصنيف عن دائرة اعتبار الفروق الفردية في أحقية تعلمه أو انتفاعه بما يلقي إليه، كما أنه داخل الصنف

والتي يأتي بها إلى المدرسة ليتعلم بناء عليها، فيكون السمع بذلك هو المصدر الأول لتشكيل هذه الأرضية.

وقد أشار إمام المفسرين أبو جعفر بن جرير الطبري (310هـ) إلى مجموعة من الملكات التي أثارها الآية كالحفظ والفهم والتمييز والتعارف والتحاور، مما يستدعي اختلاف الناس ووجود فروقات في كفاءات توظيفها وإعمالها تبعاً لاختلاف شخصياتهم في ذلك، فقال في بيان تأويل الآية: "فرزكم عقولاً تفقهون بها، وتميزون بها الخير من الشرّ وبصركم بها ما لم تكونوا تبصرون، وجعل لكم السمع الذي تسمعون به الأصوات، فيفقه بعضكم عن بعض ما تتحاورون به بينكم والأبصار التي تبصرون بها الأشخاص فتتعارفون بها وتميزون بها بعضاً من بعض. (والأفئدة) يقول: والقلوب التي تعرفون بها الأشياء فتحفظونها وتفكرون فتفقهون بها"¹⁵.

-ويقول تعالى أيضاً: ((وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ، فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ)) (سورة الأنبياء: الآيتان 78/79).

فتخصيص سليمان في بيان مزية تفهيمه يدل بمفهوم المخالفة أنه فاق والده داوود في ملكة الفهم، مع أن كلا منهما له خصيصة الحكم والعلم، يقول الطاهر ابن عاشور: "فَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ أَنَّهُ أَهْمُهُ وَجَهَّأَ آخَرَ فِي الْقَضَاءِ هُوَ أَرْجَحُ لِمَا تَفْتَضِيهِ صِبْغَةُ التَّفْهِيمِ مِنْ شِدَّةِ حُصُولِ الْفِعْلِ أَكْثَرَ مِنْ صِبْغَةِ الْإِفْهَامِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ فَهْمَ سُلَيْمَانَ فِي الْقَضِيَّةِ كَانَ أَعْمَقَ. وَذَلِكَ أَنَّهُ أَرْفُقُ بِمَا فَكَانَتْ الْمَسْأَلَةُ بِمَا

- مراعاة الحالة النفسية للتعليم.
- مراعاة أثر المكان وفاعليته في التعلم.
- حسن التغذية²⁰.

فأول ما سطره في هذه القواعد مراعاة الاستعدادات والفروق الفردية، ولعل البدء بهذه القاعدة يشير إلى أهميتها عند المربي والأستاذ، حيث إن المسؤولية تقع عليه في وجوب إمامه بهذه الفروقات وأخذها بعين الاعتبار في مهامه وممارسته، وإلا سيكون كمن يفرغ الماء على الرمل، فيضيع جهده عبثاً وذلك لأن النفع لا يستقر في محله المقصود، ولا يتصور في ممارس للتربية والتعليم عدم الإمام بالفروق والاختلافات الكائنة في التعلم والاكتمال لدى الفرد، كما لا يمكن أيضاً أن يعقل إهماله لها إذ يعد ذلك تقصيراً في واجب أداء رسالة التعليم والتربية.

4.2 توظيف الفارقة التعليمية عند الخطيب البغدادي:

يختلف أمر التنصيص على القاعدة عن سؤال الكيف في التوظيف وماهية التنزيل، ولذلك يطرح السؤال: كيف يرى الخطيب البغدادي (463هـ) توظيف هذه القاعدة وهو ما يجيبنا عنه قوله:

"باب: ذكر مقدار ما يحفظه المتفقه اعلم أن القلب جارحة من الجوارح، تحتل أشياء، وتعجز عن أشياء، كالجسم الذي يحتل بعض الناس أن يحمل مائتي رطل، ومنهم من يعجز عن عشرين رطلاً، وكذلك منهم من يمشي فراسخ في يوم، لا يعجزه، ومنهم من يمشي بعض ميل، فيضر ذلك به، ومنهم من يأكل من الطعام أرتالاً، ومنهم من يتخمه الرطل فما دونه، فكذلك

الواحد في قابلية الحفظ مثلاً نجد أهل هذا الصنف مختلفين ومتفاوتين في المقدار الذي يطيقه كل واحد منهم، وهنا نقف على مفهوم الاستعداد أو الدافعية، لأنه هو المحرك لطاقة الاشتغال معرفياً، والأمر نفسه يقال إذا ما تم الحديث عن ملكة الفهم في مقابل الحفظ.

والجدير بالذكر والتأكيد أن هذه الاستعدادات توجد مع الإنسان سجية وفطرة، ولم يشر الحديث إلى إمكانية تطويرها والارتقاء بها، لكنها تبرز وتصل من حيث مجال اشتغالها، يقول الهروي في شرحه على صحيح البخاري: " قَالَ الطَّبِيُّ: وَفِي الْحَدِيثِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الِاسْتِعْدَادَاتِ لَيْسَتْ بِمُكْتَسَبَةٍ، بَلْ هِيَ مَوَاهِبُ رَبَّانِيَّةٍ وَكَمَا هِيَ أَنْ تَسْتَفِيضَ مِنْ مِشْكَاتِ النَّبُوَّةِ، فَلَا خَيْرَ فِيمَنْ يَشْتَغِلُ بِغَيْرِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَنَّ الْفَقِيهَ مَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ"¹⁹.

3.2 مراعاة الفروق الفردية عند الخطيب البغدادي:

ذكر ماجد عرسان الكيلاني أن الخطيب البغدادي اهتم بالمجال التربوي بوضع مجموعة من قواعد التعلم، ولا شك أن هذه القواعد أراد منها التطبيق العملي لا أن تبقى مجرد حبر على ورق، وذلك لتؤتي ثمراتها وأكلها خاصة في مجال علوم الحديث الذي برز فيه بشكل كبير، وحدد ماجد هذه القواعد فيما يلي:

- مراعاة الاستعدادات والفروق الفردية.
- التفرغ وطرح الشواغل.
- التعزيز مع حسن التنبيه على الخطأ.

الخاتمة:

من أهم النتائج التي يمكن ذكرها في هذا المقام:

1. الفروق في التعليمات تنتج على مستوى الفرد الواحد عن تفاعل في مكونات الشخصية، لكنها تفرز فروقا ولا تجانساً بين الأفراد عند مباشرة التعليمات والاكساب.
2. الفروق في التعليمات تسير في اتجاهين إذ قد تكون من حيث الكم كما قد تكون أيضاً من حيث الكيف.
3. حينما يكون الحديث عن الفروق من حيث الكيف؛ يكون اعتبار الفروق الفردية في التعلم أخذاً بعين الاعتبار المهارات الفردية التي يمارسها المتعلمون على المادة كالحفظ والتحليل والتعليل والاستخراج ...
4. الحديث عن الفروق الفردية في التعلم من منطلق شرعي هو إتاحة الفرصة للجميع من أجل فتح أبواب وفرص التعلم، وهو ما ينسجم مع روح الدعوة الإسلامية في أنها موجهة لكل وأن الجميع مخاطب بها على حدّ سواء.
5. مراعاة الفوارق الفردية في التعليم والتعلم دليل على وعي الأستاذ ومسؤوليته في ممارسته المهنية بالإضافة إلى حرفيته وتمكنه.
6. وجه التفريق بين الاستعدادات والفروق الفردية يمكن أن يوزع إلى كون الفروق تتجه إلى كفاءات التعلم من حيث المهارات المختلفة التي يتعلم وفقها الأفراد، أما الاستعداد فهو يرجع إلى أصل العد والكم

القلب من الناس من يحفظ عشر ورقات في ساعة، ومنهم من لا يحفظ نصف صفحة في أيام، فإذا ذهب الذي مقدار حفظه نصف صفحة يروم أن يحفظ عشر ورقات تشبهاً بغيره لحقه الملل، وأدركه الضجر، ونسي ما حفظ، ولم ينتفع بما سمع فليقتصر كل امرئ من نفسه على مقدار يبقى فيه ما لا يستفرغ كل نشاطه، فإن ذلك أعون له على التعلم من الذهن الجيد والمعلم الحاذق²¹.

وجاء في كتاب الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي ما يوضح مقصد تبني هذه القاعدة حيث يقول سالك أحمد معلوم: "ويأتي حرص الخطيب على تعليم هذه الفئة من أفراد المجتمع من منطلق حرصه على المحافظة على كل طاقة من طاقات أبنائه، التي يجب رعايتها والاستفادة منها في بناء الوطن وتقديم المجتمع، وباختصار شديد نقول إن الخطيب بدعوته هذه يهيب بفتح باب العلم والتعليم أمام الجميع وللجميع"²²، فكأنه أراد بذلك ألا يحرم أحد من الاكساب والتعلم مهما كان مستواه ومهما كانت سيورة تعلمه سواء أكانت بطيئة أو كانت متوسطة أو كانت سريعة، وهو ما يعرف بمبدأ تكافؤ الفرص والحق المكفول في العلم والتعلم، وليتأمل اللبيب الحكيم في نتيجة ما لو أوقفنا أو منعنا من يحفظ القليل ولا يستطيع رفع إيقاعه، واكتفينا بإعطاء الحظ لصاحب المقدار الأكبر، حيث سترتب على ذلك إحباط شديد عند المحروم، بل حتى النفور والاشمئزاز من التعلم وأهله، وهي هزيمة نفسية لا يرضاها الشرع ولا العقل ولا الحس.

4. دروس في الديدانكتيك أمثلة وتطبيقات من مادة التربية الإسلامية مذيلة بتوجيهات حول البحث التربوي: العربي شاووش، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، طبعة 2010.

5. الدليل البيداغوجي للتعليم الابتدائي: وزارة التربية الوطنية، الرباط، المغرب، دجنبر 2008.

6. ديدانكتيك التربية الإسلامية من الاستمولوجي إلى البيداغوجي: أحمد العمراوي وخالد البقالي، السلسلة البيداغوجية 8، دار الثقافة، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1999م.

7. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: عبد الرحمان بن خلدون الحضرمي الإشبيلي، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط2، 1408هـ/1988م.

8. جامع البيان في تأويل القرآن: أبو جعفر بن جرير الطبري (310هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ/2000م.

9. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري): محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ط1، 1422هـ.

10. فصول في ديدانكتيك التربية الإسلامية: خالد البورقادي، منشورات دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 1444هـ/2023م.

والإحصاء، بمعنى الإشارة إلى المقدار المختلف في المهارة الواحدة التي يتعلم وفقها الأفراد.

7. الجزم في الاعتبار التفريقي في النتيجة السابقة يبقى في حاجة إلى بحث وتدقيق في ظل وجود من يرى خلاف ذلك التوظيف.

8. من العلماء من لا يرى فرقا بين الفروق الفردية والاستعدادات في التعلم على الوجه الذي سبق بيانه، وهذا أمر خاص في التوظيف والاستعمال قد يكون ناتجا عن عدم التدقيق في الاصطلاح.

9. الكتاب المدرسي في التربية الإسلامية من أهم وسائل تصريف الفوارق الفردية واعتبارها في تكيف التعلم.

المصادر والمراجع:

-القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

الكتب:

1. التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»: الطاهر بن عاشور (1393هـ)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.

2. التربية الإسلامية أصولها ومنهجها ومعلمها: عاطف السيد، حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف.

3. تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية: ماجد عرسان الكيلاني، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط2، 1405هـ/1985م.

- ⁶ من مواليد تازة 1952، أستاذ مادة الديدانكتيك سابقا في المدرسة العليا للأستاذة بتطوان ثم بفاس، المغرب، حاصل على الدكتوراه في علوم الحديث.
- ⁷ دروس في الديدانكتيك أمثلة وتطبيقات من مادة التربية الإسلامية مذيلة بتوجيهات حول البحث التربوي: العربي شاووش، ص 62، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، طعة 2010.
- ⁸ المرجع في كيفية التدريس: سعيد حليم، ص 107.
- ⁹ تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية: ماجد عرسان الكيلاني، ص 58.
- ¹⁰ ديدانكتيك التربية الإسلامية من الاستمولوجي إلى البيداغوجي: أحمد العمراوي وخالد البقالي، ص 77، السلسلة البيداغوجية 8، دار الثقافة، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1999م.
- ¹¹ هناك نوعان من الموارد، موارد داخلية (ذاتية) وموارد خارجية (من المحيط)، فالداخلية منها هي مجموع التمثلات والمعارف والمهارات التي يملكها المتعلم والتي يأتي بها وقد تملكها مسبقا، أما الخارجية فهي ما يتوفر من محيط المتعلم من وسائل مادية (سمعية وبصرية) ولفظية مما يكون من خارج ذات المتعلم، لكنه يحتاجها في التوظيف بغية تحصيل التعلم المراد.
- ¹² دروس في الديدانكتيك أمثلة وتطبيقات من مادة التربية الإسلامية (مرجع سابق): العربي شاووش، ص 33.
- ¹³ التربية الإسلامية أصولها ومنهجها ومعلمها: عاطف السيد، ص 38، حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف.
- ¹⁴ أصول التدريس في الفكر التربوي الإسلامي دراسة تأصيلية تحليلية مقارنة: صالح حميد العلي، دار المكتبي، دمشق، القاهرة، الشارقة، ط 1، 1435هـ / 2014م.
- ¹⁵ جامع البيان في تأويل القرآن: أبو جعفر بن جرير الطبري (310هـ)، ج 17/ ص 265، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط 1، 1420هـ / 2000م.
- ¹⁶ التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»: الطاهر بن عاشور (1393هـ)، ج 17/ ص 118، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
- ¹⁷ مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين: بدر عبد الحميد هميسه، <http://saaid.org/Doat/hamesabadr/222.htm>، 2025/1/19، الساعة 21.37.
- ¹⁸ الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه (صحيح البخاري): محمد بن إسماعيل البخاري، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم، رقم: 79، ج 1/ ص 27، تحقيق: محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط 1، 1422هـ.
- ¹⁹ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: علي الهروي القاري (1014هـ)، ج 1/ ص 235، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 1، 1422هـ / 2002م.

11. الفقيه والمتفقه: الخطيب البغدادي، تحقيق: عادل الغرازي، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط 2، 1421هـ.
12. الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي: سالك أحمد معلوم، مكتبة لينة، دمنهور، مصر، ط 3، 1413هـ / 1993م.
13. المرجع في كيفية التدريس: سعيد حليم، سلسلة المنظومة التربوية في المغرب، العدد 2.
14. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: علي الهروي القاري (1014هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 1، 1422هـ / 2002م.

المواقع الإلكترونية:

<http://saaid.org/Doat/hamesabadr/222.htm> الساعة 21.37، 2025/1/19.

الهوامش:

- ¹ فصول في ديدانكتيك التربية الإسلامية: خالد البورقادي، ص 67، منشورات دار الأمان، الرباط، المغرب، ط 1، 1444هـ / 2023م.
- ² المرجع في كيفية التدريس: سعيد حليم، ص 207، سلسلة المنظومة التربوية في المغرب، العدد 2.
- ³ المدخل إلى التربية والتعليم: عبد الله الرشدان / نعيم جعيني، ص 231، دار الشروق، عمان، الأردن، ط 1، 1994.
- ⁴ الدليل البيداغوجي للتعليم الابتدائي: ص 30، وزارة التربية الوطنية، الرباط، المغرب، دجنبر 2008.
- ⁵ ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: عبد الرحمان بن خلدون الحضرمي الإشبيلي، ص 734، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط 2، 1408هـ / 1988م.

²⁰ تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية: ماجد عرسان الكيلاني،

ص147/149 بتصرف.

²¹ الفقيه والمتفقه: الخطيب البغدادي، ج2/ ص215، تحقيق: عادل

الغرازي، دار ابن الجوزي، السعودية، ط2، 1421هـ.

²² الفكر التربوي عند الخطيب البغدادي: سالك أحمد معلوم، ص104.

